بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين
محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين

الإدارة الدينية

نشرة تعالج مفاهيم الإدارة الدينية
وتطبيقاتها العملية في المشاريع والمؤسسات

إدارة النزول القرآني (١)

الخطاب القرآني المكي: التأسيس الفكري لأصول الدين

المحرر:
صادق جعفر

- التعريف بالمقالة:

في مكة المكرمة لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلطان ولا يد مبسوطة، وإنما كانت دعوة للتوحيد وللإيمان بالله ونبيّه وسُننه، لذا حازت أصول العقيدة على السهم الأكبر من مضامين التنزيل والتبليغ، دون التشريعات والدساتير التي تنظم الإدارة العامة والأحكام التفصيلية للمجتمع، فكان دور القرآن الكريم هو عرض الأصول الفكرية والعقائدية للدين السماوي أي التوحيد والنبوة والمعاد والتي نزلت في صيغة مفردات وآيات وسور شكَّلت المادة التبليغية الأساسية.

تستعرض المقالة دلائل هذه الفكرة من خلال إشارات سريعة وموجزة، اعتماداً على السور الشريفة التي نزلت خلال الحقبة المكية للرسالة المحمدية.

رضوى
للانتاج الثقافي

- توضيح أصول الدين:

إن عملية التبليغ في الحقبة المكية قامت في جوهرها على توضيح أصول الدين أي التوحيد والنبوة والمعاد، فكانت هذه الأصول الثلاثة هي المحاور الأساسية لمواضيع السور القرآنية التي نزلت في مكة والتي بلغت حوالي ثلاثة أرباع سور القرآن الكريم من الناحية العددية. أما لماذا ركَّز مضمون السور القرآنية على الأصول في الحقبة المكية، فلأن الإسلام لم يكن حاكماً ولا متسلطاً لكي ينزل في تلك الفترة بالأحكام والتشريعات، وإنما كان دعوة جديدة تحتاج إلى توضيح أسسها للناس لكي يقبلوها ويعتنقونها أولاً. وفيما يلي عرض موجز وسريع لأسلوب القرآن الكريم في التطرق لهذه الأصول.

- الأصل الأول: التوحيد

إن أول آية نزلت من الذكر الحكيم أشارت بوضوح إلى أصل التوحيد وطبيعته، فقالت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق ١]، فالإشارة هنا إلى رب واحد هو الرب القادر على الخلق الذي لا يقدر عليه غيره، فقد ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[العلق ٢]، ثم يتوالى ذكر التوحيد في آيات وسور بحيث يشكل موضوعها الأساسي كسورة الأعلى والتي يتم الإشارة فيها إلى القدرة الإلهية على الخلق والهداية والرزق، وسورة التوحيد والتي قدمت ذروة توضيحها لهذا المعنى حيث بيّنت أنه تعالى لا يشاركه أحد في الألوهية ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأنه لا مثيل له ﴿الصَّمَدُ﴾، وأنه لا يكافئه أي أحد أو أي شيء في الكون كله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[التوحيد ٤].

وفي سورة الفاتحة يبدأ التنزيل بالحمد لرب واحد هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وتوضح صفات هذا الرب العظيم بأنه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وأنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وفي هذا ربط بين أصل التوحيد وأصل المعاد. ثم تبيّن واجب الخلق تجاه ربهم الواحد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وذلك بالتوافق مع ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأن ذلك لا يصح إلا عبر طريق واحد هو صراط الله المستقيم وليس صراط غيره من الضالين، وفي هذا نفي للشرك وبيان تضاربه مع صراط التوحيد، وفي سورة قريش أمر بعبادة ﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[٣-٤].

وفي مرحلة لاحقة تبدأ السور في توضيح الدلائل التفصيلية لخالقية رب هذا الكون، ففي سورة الحجر تشرح آياتها الدلائل ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[١٦]... ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾[١٩-٢٠]... ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[٢٢]... ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾[٢٣]... ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[٢٦-٢٧].

وفي سورة الصافات تأكيد لوحدانية الله من خلال نظام الكون ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾[٤-٥]، وإنه سبحانه وتعالى واحد ليس له ولد ولا يحتاج إلى ولد يعينه في إدارة هذا النظام، كما ورد في سورة الزمر ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٤]، وأنه تعالى ﴿لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كما في سورة الجاثية[٣٧].

ولا بأس هنا من الإشارة إلى ما أورده بعض المفكرين[الجابري] من أن السور الشريفة تدرّجت في التعريف برب العالمين، حيث استخدمت السور الأولى مصطلح الرب، وهو ما كان شائعاً لدى العرب في تلك الفترة، ثم انتقل التوصيف إلى اسم الله وهو مشتق من الإله، وبعده استخدمت أسماء توصيفية كالرحمن والرحيم، واستخدمت أيضاً توصيفات لا يقدر عليها غيره جلَّ جلاله وإن نسبت إلى غيره شركاً كالإشارة إليه سبحانه بأنه مصدر الرزق والأمن والملك والعز وما أشبه.

- رد فكرة الشرك وعبادة الأصنام:

إلى جانب ذلك نزلت السور التي ترد على فكرة الشرك وعبادة الأصنام وتوضح معارضتها لمعنى التوحيد، ففي سورة النجم رد وتسفيه مباشر لتلك الفكرة ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[١٩-٢٠]... ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾[٢٣]، وفي سورة ص تشير الآيات إلى استنكار الكافرين ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[٥]، وفي سورة الفرقان تشير الآيات الشريفة إلى التضارب بين مفهوم التوحيد ومفهوم الشرك، فتصف رب العالمين بأنه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٢]، وفي المقابل فإن الكفار ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[٣].

وإلى معنى قريب من ذلك تشير سورة فاطر ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾[٤٠]، وكذلك في سورة مريم ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[٨١] أي في الدنيا، ولكنهم حين يوقفون للعذاب يوم القيامة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[٨٢]. وفي سورة القصص ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٧٤] ... ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾[٦٤]. وفي سورة يونس ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[١٨]، وفي ذات السورة احتجاج وتقريع شديد على المشركين وتوضيح لمدى عجز الآلهة التي يعبدونها ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٣٤-٣٥].

وفي سورة الأنعام توبيخ للمشركين على سخافة الأفكار والتصورات التي تراودهم بشأن رب الأرباب ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[١٣٦]، كما إنه تعالى يكرر ذلك التوبيخ في سورة سبأ ويشير إلى عجز تلك الآلهة المزعومة ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[٢٢]، وفي سورة الزمر تفنِّد الآيات الكريمة مبررات الشرك ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[٣]، كما تفنِّد سورة الزخرف التصورات الشركيَّة للمشركين حين ادعوا بأن الملائكة هم بنات الله ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾[١٦] ... ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[٢٠].

- الأصل الثاني: النبوة:

وفي أصل النبوة تتطرق الآيات الكريمة إلى مواضيع عديدة، هي:

- توصيف شخصية رسول الله ﷺ:

تضمّنت أوائل السور التي نزلت من الذكر الحكيم توصيف لشخصية رسول الله ﷺ، ولربما قصد من هذا التوصيف توضيح طبيعة الدور الذي يفترض في النبي ﷺ الالتزام بتنفيذه، وأهمية إفهام الناس لطبيعة هذا الدور تسهيلاً لتفاعلهم معه، ففي سورة المدثر إشارة واضحة لدور الإنذار والذي سبق دور التبشير في مهمة رسول الله ﷺ وأنه عليه القيام بهذا الدور أي أن هذا الدور يتطلب قياماً ونهضة وحركة ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[٢]، والعمل من أجل جعل القيم السماوية المرسلة من قبل رب العالمين هي المهيمنة ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[٣]، وإبراز الرسالة في أطهر تمظهراتها ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٤]، وهكذا بقية الآيات ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[٥-٧]، ولعل هذا التوصيف أخذ بعداً خارجياً في شخصية رسول الله ﷺ حيث أنه يوحي بما يجب أن يعكسه من شخصيته على البيئة الخارجية المحيطة به.

ثم تأتي سورة المزمل لتوصّف العوامل المؤثرة على بعده الداخلي وذاته الشخصية ﷺ وأهمية التزامه بها ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[٢-١٠].

من جهة أخرى تتكلم سورة الانشراح عن واحدة من أهم السلوكيات التي يتصف بها رسول الله ﷺ وهي سعة الصدر وسعة الأفق ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[١]، وتوضح سورة الكافرون بشكل قاطع اختلاف المنهج الذي يدعو له الرسول ﷺ عن منهج الكافرين، وأن عليه أن يوضح لهم ذلك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، كما يشير في سورة القلم في مرحلة تالية إلى أهم صفة تجسّد مضمون الرسالة الجديدة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾[٤]، ثم يبين في مرحلة متأخرة المدى الذي سيتحرك فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما في سورة الأنعام ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٩٢]، وأن مصير الإنسان في أتباع الرسول هو مسئوليته الشخصية ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[١٠٤] وأن دور الرسول هو الإنذار وليس مسئولاً عمن لا يؤمن ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[١٠٧].

وذات الشيء تم تأكيده في سورة الزمر، والتي تحث فيها الآيات بمنطق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الإيمان وتحذر من الخسران ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥٣-٥٨]، وأن خلاصة ما يدعوا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كما في سورة الروم - هو فطرة الله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٣٠].

- علاقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي:

تعزز سورة النجم صورة الوحي بالنسبة لطبيعة علاقته بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فتؤكد أنه ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٣-٤]، وأن هذا الوحي هو ﴿قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ كما في سورة البروج[٢١-٢٢]. ثم تأتي سورة القمر لتوثّق شيء من معاجز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم التي تثبت اتصاله بالسماء وبالقدرة الخارقة لإله الكون ورب الأرباب ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[١-٢].

أما في سورة الأعراف فيرد توصيف أوضح لما يجب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التصرف تجاه الوحي ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وأن هذا القرآن ﴿تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى، تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ كما في سورة طه[٣-٤]، وأن هذا القرآن واضح البيان والمضامين ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كما في سورة النمل[١]، وأنه إضافة إلى الإنذار السابق فإنه يحوي بشارة للمؤمنين ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وإن تلقّيه ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٦].

ثم في سورة الأنعام يربط الوحي الرسالات السابقة برسالة خاتم الأنبياء ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٩٢] أي من التوراة والإنجيل، وأنه ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ كما في سورة فصّلت[٣-٤]. وفي سورة الشورى تأكيد على أن الوحي الذي ينزل على هذا النبي والوحي الذي نزل على من قبله من الأنبياء والرسل هو من مصدر واحد ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣]، وتتجلّى قمة الاتصال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوحي السماوي ومصدره أي الله خالق هذا الكون في سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[١].

- موضوع النبوة ورسالات الأنبياء:

ولتوضيح أصل النبوة تركز السور في هذه الحقبة على معان عديدة، منها:

أ- عاقبة أقوام الأنبياء:

تبدأ السور المباركة بالإشارة إلى أقوام الأنبياء قبل الإشارة إلى الأنبياء أنفسهم، كما أن تلك الإشارات غالباً ما كانت في البداية موجزة وسريعة، ففي سورة الفجر إشارة سريعة إلى الأقوام الذين كذبوا رسلهم وعاقبتهم السيئة بالرغم من قوتهم وجبروتهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٦-١٤]. ثم يرد في سورة الشمس تفصيل أوسع قليلاً لقصة ثمود وتعاملهم مع آية الله التي هي الناقة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾[١٤]، وفي سورة البروج ذكر لحديث الجنود ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾[١٨]، وفي سورة ق ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[١٢-١٤].

بعد ذلك تبدأ السور بالإشارة إلى مقولات تلك الأمم،

ففي سورة القمر إشارة إلى مقولة قوم نوح عليه السلام ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾(٩)، وقوم صالح عليه السلام ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾(٢٤-٢٥)، ثم يهدد تعالى قريش ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(٤٣)، ويشير تعالى في سورة الحجر إلى العذاب الذي نزل على قوم لوط عليه السلام ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾(٧٣-٧٤)، وقوم شعيب عليه السلام ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٧٩)، وقوم صالح عليه السلام ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾(٨٣).

ب- سيرة الأنبياء عليهم السلام:

بعد ذلك تبدأ في سورة ص حالة التطرق بشيء من التفصيل لذكر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، حيث تتطرق الآيات إلى سيرة كل من داود وسليمان وأيوب، وهؤلاء ليسوا من الأنبياء العرب (أي هود وصالح) الذين تمت الإشارة لأقوامهم بكثرة في السور الماضية، كما إن هذه السورة تشير إلى الجانب الشخصي في موضوع النبوة أكثر من موضوع معارضة الأقوام، فهي تشير إلى الصبر والحكمة والنعم التي أفاضها تعالى على رسله بسبب إخلاصهم وطاعتهم.

وفي سورة الأعراف يتم البدء بقصة آدم وحواء عليهما السلام، وكيف وسوس لهما الشيطان ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾(٢٢)، ثم تتطرق السورة في آيات لاحقة إلى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، والمحاور الرئيسية في دعوتهم ومجادلاتهم مع أقوامهم، وفي السورة تركيز أوسع على قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل.

ثم تأتي سورة كاملة باسم شخصية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالوحي وبواحدة من أهم الرسالات السابقة وهي سورة مريم، وفيها قصة النبي زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، وقصة مريم وابنها المسيح عليهما السلام، ثم يتوالى ذكر الأنبياء والرسل إبراهيم وأبناؤه، وموسى وهارون، وإسماعيل وإدريس عليهم السلام جميعاً، وتشير آياتها إلى الصفات الشخصية للرسل وانعكاسها على عملهم مع أقوامهم، وأهمها المصداقية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(٥٠)، والإخلاص ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾(٥١)، وتشير إلى موضوع العلاقات العائلية والتضارب الذي قد يشوبها في حياة الأنبياء بسبب التزامهم بمسار الدعوة والتوحيد ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾(٤٤)، وغيرها من المواضيع الدقيقة، وكذا الأمر في سورة طه والشعراء والنمل والقصص.

وتشير سورة الأنبياء إلى الولاية الكونية لبعض الرسل كإبراهيم عليه السلام وهو من أولي العزم - كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -، وكيف أن الملائكة التي نزلت بالعذاب لقوم لوط أحاطته أولاً علماً بما ستقدم عليه، وفي سورة الشورى ربط جميع الرسالات والشرائع ببعضها، وتبيان مصدرها الأوحد ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(١٣)، وكيف أن ذلك صعب الإقرار به من قبل المشركين ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(١٣).

ج- سور الأنبياء عليهم السلام:

ثم تتوالى سور باسم الأنبياء أنفسهم، كيونس وهود ويوسف عليهم السلام، وتشكّل سورة يوسف فصلاً خاصاً بقصة يوسف عليه السلام وأخوته، وتتطرق إلى محورين أساسيين، الأول هو محور العلاقات الاجتماعية الضعيفة والاستهانة بصلة الرحم في المجتمع الذي ولد فيه يوسف عليه السلام، وكيف أن هذه الحالة السيئة تجلّت بذروتها في تعامل أبناء يعقوب عليه السلام مع أخيهم يوسف ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾(٩)، وتوضح السورة المباركة كيف أن يعقوب عالج هذا الخلل ببكائه ٤٠ عاماً على يوسف ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾(٨٤) حتى تمكّن من تغيير سلوك أبناءه ودفعهم إلى الإقرار بذنبهم والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾(٩٧). أما المحور الثاني فهو أثر الشخصية الصالحة والمؤمنة والكفوءة وقدرتها على تغيير مجتمع كامل كان مليئاً بالمفاسد، وحفظه من النكبات، وكيف أن الصلاح والكفاءة ركيزتان أساسيتان لتمكين الإنسان ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾(٥٤-٥٦).

ثم تأتي سورة نوح بقصة سعيه ومعاناته عليه السلام مع قومه، وكيف إنه حاول بشتّى الطرق أن يدعوهم إلى الإيمان وفي كل الأوقات ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾(٥) وأن قومه عاندوه و﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾(٧)، وورد عليه السلام على ذلك بالإسرار إليهم بالدعوة وبالجهر ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي

أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾(٨-٩)، ثم أنه عليه السلام بشّرهم ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(١٠-١٢)، ثم إنه عليه السلام دعاهم إلى التأمل في قدرة الله وأحقيته في أن يعبد جلّ وعلا وأثر نعمه عليهم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا، وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(١٣-١٧) وذكّرهم بالفناء والبعث ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾(١٨).

وتأتي بعد ذلك سورة إبراهيم لتربط شريعته الحنفية وعقيدته التوحيدية بالبيت العتيق الذي يشكّل محور حياتهم، وينبههم إلى ضرورة الابتعاد عن الشرك، ويوضّح للمتأمل بداهة الربط بين دعوة إبراهيم عليه السلام السحيقة في الزمن وبين الدعوة المحمدية القائمة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾(٣٥-٣٧).

ثم تأتي سورة الأنبياء فتشير إلى أن أصل جميع الرسالات وأن سعي جميع الأنبياء عليهم السلام هو واحد من إله واحد إلى غاية واحدة هي التسليم له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢٥)، وإن هدف هذا التسليم وهذه العبادة هو الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١٠٧-١٠٨).

- الأصل الثالث: المعاد:

وفي ما يتعلق بالمعاد، توضح الآيات القرآنية أيضاً مواضيع عديدة، هي:

- صور القيامة والبعث:

تطرح سورة التكوير الصور الأولى من الوحي المنزل لعلامات القيامة، حيث تبيّن الاضطراب الشديد الذي يحصل في نظام الكون حين تبدأ علامات القيامة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(١-٦)... ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾(١١-١٣)، وكذلك الأمر في سورة الفجر ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾(٢١)، وفي سورة العاديات ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾(٩)، وفي سورة القارعة ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾(٤-٥)، وسورة الزلزلة ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٢)، وفي سورة المرسلات ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾(٨-١٠)، وفي سورة يس ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ، إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾(٥١-٥٣).

وفي سورة القيامة توضيح كامل لما سيحدث، فيبدأ التنزيل ببيان عظمة هذا اليوم أو هذه اللحظة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(١)، ثم ينتقل إلى لحظة البعث ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾(٣)، ثم إلى علامات القيامة المهولة ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾(٧-١٠)، ثم ينتقل إلى عملية الحساب ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾(١٣)، فتكون النتيجة بين فرح وخوف ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾(٢٢) ... ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾(٢٤)، وسبب الخوف هو العمل السيئ ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى، وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾(٣١-٣٢)، في الوقت الذي كان عليه الاهتمام بآخرته ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٣٦).

- أسباب العذاب وصوره:

وتُعرض صور العذاب في سورة الهمزة ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ، إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾(٤-٩). وفي سورة المدثر وعيد لمن صد واستكبر ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾(١٦-٢٩)، وفي مكان آخر من السورة يتساءل أصحاب اليمين عن المجرمين ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾(٤٢-٤٥).

- صور النعيم مقابل عذاب الجحيم:

ويبدأ عرض مقارن بين صور سريعة للعذاب وصور تفصيلية للنعيم في سورة الرحمن، ففي النار ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ

آن﴾[٤١-٤٤]، وفي المقابل فإن ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، ذَوَاتَا أَفْنَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[٤٦-٦٠].

وفي سورة الواقعة بعد البدء بمشاهد يوم القيامة تصف الآيات حال المؤمنين في الجنة حيث ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[١٧-٢٦]، وعلى مستوى آخر يتنعم المؤمنون ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ، وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ، إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[٢٨-٣٧]، أما الكافرون فهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[٤٢-٤٤] ... ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ، لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[٥١-٥٥]، وجعلت هذه المقارنة التصويرية ربما لإعطاء أثر أعمق للنعيم الذي يتقلب فيه المؤمنون مقابل ما يجري على المكذبين.

ويتكرر سياق مشابه في سورة الصافات، فبعد ذكر مشاهد النعيم في الجنة بالنسبة للمؤمنين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ، قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ، فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ، قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[٥٠-٥٧] ... ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[٦٠-٦١]، وكذلك الأمر في سورة الطور.

– الوعيد للكافرين على استهزاءهم بالمعاد:

وفي سورة ق وعيد للكافرين بنكرانهم للمعاد ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ، أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[٢-٣]، وفي سورة القمر تحذير باقتراب لحظة الميعاد مقرونة بدلائل القدرة، لعلها تنبههم إلى صدق ما يأتي به الوحي ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[١]، وفي سورة الفرقان رد على تكذيبهم بالبعث ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا، إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا، لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا، قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[١١-١٥].

وفي سورة يونس توضيح إلى أن إنكار البعث هو من الأسباب الرئيسية لإنكار الوحي ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[١٥]، وفي سورة الأنعام ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[٢٩]، وفي سورة الكهف توضح الآيات بأن البعث حق وواقع ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[٩-١٢] ... ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[٢١].

أما في سورة النازعات فتشير إلى محاولات الكفار لإثبات عدم صحة البعث من خلال السؤال عن وقت الساعة، وأن مجهولية ذلك دليل على عدم صحته ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا، إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[٤٢-٤٦].

– خاتمة:

إضافة إلى الدور الاستراتيجي الذي قام به التنزيل القرآني في توضيح وتعريف أصول الدين، فإنه وفَّر كذلك مادةً أساسية لمواضيع مهمة عزَّزت ذلك السياق كالحديث عن الغيب وتعريفاته وطبيعته، وهو موضوع عقائدي أساسي يُصدِّق دعوى رسول الله ﷺ بأنه مرسل من السماء ودعواه بارتباطه بالغيب، وكالحديث عن قيم وهوية الرسالة المحمدية الجديدة، حيث نزلت العديد من السور التي توضِّح القيم والمفاهيم الإنسانية والمجتمعية المتفرعة عن الأصول العقائدية الأساسية، وكموضوع الاحتجاج على الكافرين والذي تشكل البراهين العقلية والسنن الإلهية مادته الأساسية.

والخلاصة هي أن آيات وسور القرآن الكريم في الحقبة المكية من الرسالة المحمدية اتخذت طابعاً يلائم طبيعة التبليغ الرسالي في ذلك الوقت، ولم يتحول التنزيل الى استراتيجية أخرى مكمِّلة لهذه الاستراتيجية الا مع التحولات الني جرت على أوضاع الرسالة وعملية التبليغ في الحقبة المدنيَّة التي تلتها.

– المعارف الغيبية:

إضافة إلى دور التنزيل القرآني المكي في توضيح أصول الدين، فإنه وفَّر مادةً أساسية لموضوع الغيب، وهي مادة تصدِّق دعوى رسول الله ﷺ بأنه مرسل من السماء ومرتبط بالغيب، ومن أمثلة ذلك التوصيفات الغيبية للآخرة والجنة والمعاد، والقصص التاريخية البائدة والضاربة في الزمن السحيق، سواء كانت من قصص النشأة الأولى للبشرية كقصص آدم وحواء عليهما السلام والحوادث التي مرت عليهما وعلى أولادهما وقصة إبليس اللعين معهما، أو قصص العرب البائدة كقصص قوم هود وصالح عليهما السلام، أو قصص أنبياء أهل الكتاب كموسى وعيسى وداود وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، أو قصص المناطق البعيدة كالروم وسبأ وبيت المقدس وطور سيناء وغيرها.

هذا إلى جانب الاتصال بالعوالم الغيبية الأخرى كعالم الجن ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾(الجن ١-٢)، وكذلك الإشارة إلى المستقبل في بعض القضايا كما في سورة المسد وهي من أوائل السور وقد أشارت إلى أن أبو لهب ملعون وأنه من أهل النار وتتضمن ما يشير إلى أنه لن يؤمن أبداً، ومع ذلك – كما أشار إلى ذلك بعض المفكرين(Miller) – فقد كان أمام أبو لهب ما لا يقل عن عشر سنوات لكي يدَّعي الإسلام ولو نفاقاً فقط لكي يهزأ برسول الله ﷺ ويكذِّبهُ بأن يعمل بخلاف ما أدلت به السورة وبالتالي يبين بأن هذا القرآن ليس بكتاب صدق، لكنه لم يفعل، وصدقت السورة المباركة.

– المصادر

١. الجابري، د. محمد عابد. **مدخل إلى القرآن الكريم: الجزء الأول في التعريف بالقرآن**، الطبعة الثانية، (٢٠٠٧)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٢. جعفر، صادق: **التأسيس: السيرة الاستراتيجية لرسول الله محمد بن عبدالله ﷺ - كيف أسس رسول الله ﷺ شريعته، وأقام الدين، وختم الرسالات؟**، الطبعة الأولى، (١٤٤٣هـ/ ٢٠٠١م)، رضوى للإنتاج الثقافي، قم المقدسة.

3. Miller, G., **The Amazing Qur'an,** (1992), Abul-Qasim Publishing House.

الإدارة الدينية

تصدر عن:
رضوى للإنتاج الثقافي

للمراسلات:
maqalatnewsletter@gmail.com

توضيح:
محتوى الإدارة الدينية متاح للراغبين في الاقتباس، مع ملاحظة نسب الاقتباسات إلى النشرة.

رضوى
للانتاج الثقافي